- السَّيِّداتُ والسَّادةُ، صبَاحُ الخَيرِ.
أنَا مُمتَنٌّ لوجُودِي هُنَا، ولإتَاحةِ الفرصَةِ لِي كَي أبدأَ اليومَ بنقَاشٍ حولَ هذَا الأمرِ المُهمِّ جِدًا، لكن غالبًا مَا يتمُّ إغفالُهُ، ألَا وهُوَ الخطابُ الدِّينيُّ الحالِي، وكيفَ يمكِنُنَا أن نخطُوَ نحوَ نِقَاشٍ عام مُتَمَاسِكٍ وبَنَّاءٍ بصورةٍ أوسعَ، وخُصُوصًا فيمَا يتعلَّقُ بالإسلامِ، أرَى أنَّ منَ المهمِّ التَّركيزَ فِي العناصِرِ الَّتِي تُوحِّدُ بينَ العالَمِ الإسلامِيِّ والغَربِ، كخطَابٍ مُنَاهضٍ لنزعَةِ التَّركيزِ فِي مُسَبِّبَاتِ الخِلافِ السَّائِدَةِ فِي النِّقاشِ العَالمِيِّ.
وبعبارةٍ أُخرَى: ينبغِي أن نسألَ أنفسَنَا: مَا هِيَ القِيَمُ المشتركَةُ بينَنَا؟ كيفَ يُمكِنُنَا العملُ سويًّا؟ كيفَ يُمكِنُنَا إنشاءُ المزيدِ منَ المِنصَّاتِ للحِوارِ وتبادُلِ الآراءِ؟ مَا هِيَ مسؤوليَّةُ القِيَادَاتِ السِّياسيَّةِ والمُجتَمَعِيَّةِ والدِّينيَّةِ، وكذلِكَ المُواطِنِينَ؟ كيفَ نَستَطِيعُ تَمكِينَ الجمِيعِ منَ المُسَاهَمَةِ فِي النِّقَاشِ؟
كمَا تعلمُونَ جميعًا، فأَنَا لستُ عالِمًا دينيًّا، ولَا مُختصًّا فِي الإسلامِ، ولكنِّي قَدِمتُ من بلَدٍ كانَ لهَا نصيبُهَا منَ الحرُوبِ والنِّزَاعَاتِ وسفكِ الدِّمَاءِ، وكانَ آخرُ مثالٍ علَى ذلِكَ فِي عامِ ٢٠١٦م، عندَمَا شَنَّ إرهابيُّونَ تابعوُنَ لدَاعِش سِلسِلَةً منَ الهجَمَاتِ بالقَنَابِلِ فِي بِلجِيكَا، ممَّا أسفَرَ عن مقتَلِ ٣٢ شخصًا، وإصابَةِ أكثرَ من ٣٠٠ آخَرِينَ، ومعَ ذلِكَ فَقَد نجَحنَا دائمًا كدولَةٍ فِي تجَاوُزِ هذهِ التَّحدِّيَّاتِ وإيجَادِ صُوَرٍ للتَّعايُشِ بينَ الطَّوائِفِ العِرقِيَّةِ والدِّينيَّةِ وأصحابِ اللُّغَاتِ المُختلِفَةِ.
لم يكُن الأمرُ دائمًا سهلًا، بَل كانَ فِي الواقِعِ بعيدًا تمَامًا عن كَونِهِ سهلًا، لكنَّنَا مُلتزِمُونَ بالتَّركِيزِ فيمَا يُوَحِّدُ بينَنَا كأُمَّةٍ، معَ السَّمَاحِ بمساحَةٍ لِصُوَرِ الاختِلَافِ-كالاختِلافِ فِي الدِّينِ- ضِمنَ الأُطُرِ القَانونِيَّةِ والثَّقافيَّةِ المعمُولِ بهَا فِي بَلَدِنَا، ولِتَحقِيقِ هذهِ الغايَةِ أَعتَقِدُ أَنَّ مفهومَ اللَّائِكِيَّةِ أوِ العلمَانِيَّةِ كانَ منَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ؛ وذلكَ لأنَّهُ يُوَفِّرُ مساحةً للحرِّيَّاتِ الشَّخصِيَّةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالدِّينِ معَ وَضعِهَا قُيُودًا علَى تأثِيرِ الدِّينِ علَى الدَّولَةِ.
رُبَّمَا يزعُمُ البعضُ أنَّ الحزبَ الدِّيمقراطِيَّ المسيحِيَّ الَّذِي أَنتَمِي إليهِ هُوَ حزبٌ مسيحيٌّ، ومِن ثَمَّ يتأثَّرُ تأثُّرًا كبيرًا بالدِّينِ، هذَا صحِيحٌ إلَى حدٍّ مَا.

والفَرقُ هُوَ أنَّ الدِّيمقراطِيَّةَ المسيحيَّةَ بالرَّغمِ من كونِهَا تستَنِدُ إلَى قِيَمٍ مسيحيَّةٍ، إلَّا أنَّهَا لَا تعمَلُ بالنِّيَابَةِ عن أيِّ كيانٍ دينيٍّ أو كَنَسِيٍّ، ولكنَّهَا تحترمُ مَبَادِئَ العلمَانيَّةِ وتلتَزِمُ بهَا.
ومعَ هذَا أعتقِدُ أنَّنَا معَ إدرَاكِنَا لحجمِ الاختلَافاتِ فيمَا بيننَا، كمَا هُوَ الحَالُ بالنِّسبَةِ للنَّظْرَةِ إلَى العلمانيَّةِ أو المُعتَقَدَاتِ الدِّينيَّةِ، فنحنُ بحاجَةٍ أيضًا إلَى تَبَنِّي مَا لدَينَا من قَوَاسِمَ مشتركَةٍ، وهذَا غالبًا مَا يغِيبُ عنِ النِّقَاشِ العَامِ، وعندَمَا يتعلَّقُ الأمرُ بالدِّينِ والثَّقافَةِ وَرُؤيَتِنَا للعَالَمِ، فإنَّنَا نمِيلُ إلَى التَّركيزِ علَى مَا يُفَرِّقُنَا لَا مَا يُوَحِّدُنَا.
إنَّنِي أُدرِكُ أنَّ الجَدَلَ الدَّائِرَ فِي أوروبَّا والغربِ غالبًا مَا يكُونُ محدُودًا وَمُبَسَّطًا بصُورَةٍ مُخِلَّةٍ، وذلِكَ عندَمَا يَتَعَلَّقُ الأمرُ بالإسلَامِ علَى سَبِيلِ المثَالِ، وكمَا أُشِيرُ بحَقٍّ مِن خلَالِ هذَا التَّقدِيمِ المُوجَزِ لهذِهِ المناقشَةِ، فإنَّنَا فِي الوَاقِعِ لَا نُفَكِّرُ فِي حقيقَةِ كونِ ضحَايَا الجَمَاعَاتِ المتطرِّفَةِ منَ المسلمِينَ أكثرَ بكثِيرٍ منَ الضَّحَايَا المسيحيِّينَ، سواءٌ أكانَت تلكَ الجماعَةُ هِيَ داعِشَ أم حركَةَ الشَّبَابِ المُجَاهِدِينَ.
وفِي مِثلِ هذَا النِّقاشِ أيضًا، يغلبُ تَجَاهُلُ حقيقَةِ أنَّ أكبرَ نسبةٍ من مُسلِمِي العالَمِ يرفُضُونَ بصُورَةٍ قَطعِيَّةٍ تلكَ التَّفسِيرَاتِ المتطرِّفَةَ للقُرآنِ.
ومِن نَوَاحٍ عِدَّةٍ، يُمكِنُ للمَرءِ أن يَرُدَّ بأنَّ وِجهَةَ نَظَرِ الإسلَامِ فِي الغربِ قد تَمَّ اختِطَافُهَا مِن قِبَلِ مجموعَةٍ صغيرةٍ، أو أقَلِّيَّةٍ منَ المتطرِّفِينَ العَنِيفِينَ، الَّذِينَ تمكَّنُوا مِن خِلَالِ أعمالِهِم البَشِعَةِ مِن طَمسِ قُرُونٍ منَ التَّعايُشِ السِّلمِيِّ، وغَرسِ بُذُورِ انعِدَامِ الثِّقَةِ والانقِسَامَاتِ فِي المجتمَعَاتِ.
إذَن.. مَا الَّذِي يُمكِنُ عملُهُ لِتَحدِيدِ الفَوَارِقِ الدَّقِيقَةِ فِي النِّقَاشِ حتَّى نَصِلَ إلَى التَّوحُّدِ بَدَلًا منَ الانقِسَامِ؟
هناكَ ثلاثَةُ موضُوعَاتٍ أَوَدُّ تسلِيطَ الضَّوءِ عليهَا فِي هذَا الصَّدَدِ؛ وهِيَ: أهميَّةُ التَّعلِيمِ، والحِوَارِ، والتَّعاوُنِ.
وَبَدءًا بالنُّقطَةِ الأُولَى، أعتقِدُ أنَّ التَّعليمَ والمعرِفَةَ هُمَا أمرَانِ حيوِيَّانِ لمُكافَحَةِ التَّطَرُّفِ والانقِسَامَاتِ المجتمَعِيَّةِ، وانتِشَارِ الحَقَائِقِ الزَّائِفَةِ عنِ الآخَرِ، سَوَاءٌ أكَانَ هذَا الآخَرُ مسيحيًّا أم مُسلمًا.

وكمثَالٍ علَى ذلِكَ فإنَّهُ منَ الأهمِّيَّةِ بمكَانٍ معرفَةُ أنَّ الدِّيانَاتِ الرَّئيسَةَ الثَّلاثَةَ فِي العَالَمِ - اليهودِيَّةَ والمسيحيَّةَ والإسلَامَ- تَنطَوِي علَى تعاليمَ تَتَشَابَهُ بصُورَةٍ استثنائِيَّةٍ فيمَا يتعلَّقُ بالقِيَمِ الاجتماعيَّةِ والأَخلاقِ الفَردِيَّةِ. كمَا أنَّهَا تشترِكُ فِي المعتَقَدَاتِ الجَوهَرِيَّةِ حولَ الحريَّةِ والمساوَاةِ والأُخُوَّةِ والعَدَالَةِ الاجتماعيَّةِ، أي: الأَخلاقَ الإبراهيمِيَّةَ.
ويزعُمُ البعضُ أنَّ الإسلامَ أيضًا قد دَأَبَ علَى الدَّعوةِ إلَى شَكلٍ ديمقراطِيٍّ للحُكمِ، بمعنَى أنَّ الجمَاهِيرَ هِيَ الَّتِي ينبغِي أن تُقَرِّرَ كيفَ تُقَادُ؟ وَمَن يجِبُ أن يَقُودَهَا؟
علاوَة علَى ذلِكَ، فإنَّ القرآنَ يُشَجِّعُ أيضًا إجرَاءَ الحِوَارِ والتَّشاوُرِ كوسيلَةٍ لِفَهمِ الرَّأيِ العَام وتحديدِ الأُمورِ بشكلٍ عادِلٍ، وعندَ الحدِيثِ عنِ الإنصَافِ والعَدلِ، فإنَّ ذلِكَ مُقتَبَسٌ مِن آيةٍ قُرآنِيَّةٍ تُعتَبَرُ وَاحِدَةً من أعظَمِ صِيَغِ العَدَالَةِ وِفقًا لجَامِعَةِ (هَارفَارد) (*).
هذِهِ مجرَّدُ أمثِلَةٍ قليلَةٍ توضِّحُ أهميَّةَ التَّعلِيمِ والمعرِفَةِ. أمَّا الجهلُ فَهُوَ يُؤَدِّي إلَى التَّعصُّبِ والانحِيَازِ والتَّنفِيرِ. وَهُوَ مَا يَقُودُنِي إلَى نُقطَتِي الثَّانِيَةِ، أَلَا وَهِيَ: أهميَّةُ إجرَاءِ حِوَارٍ، وبخاصَّةٍ الحِوارُ بينَ الأديَانِ، ثَمَّةَ حاجَةٌ مُتَزَايِدَةٌ إلَى توفِيرِ مِساحَاتٍ لإجراءِ حِوارٍ ومُناقشَاتٍ مفتوحَةٍ مِثلِ هذهِ حتَّى بشَأنِ موضوعاتٍ قد تكُونُ شائِكَةً ؛ مِثل الدِّينِ والتَّطرُّفِ الدِّينيِّ. وَبِحَسبِ رَأيِي، لا بُدَّ أن تُجرَى هذهِ الحِوَارَاتُ علَى جميعِ المستويَاتِ بينَ القِيَاداتِ السِّياسيَّةِ والدِّينيَّةِ، بَل أيضًا بينَ مختلَفِ فِئَاتِ المجتمَعِ، وفيمَا بينَ المُوَاطِنِينَ أنفُسِهِمْ.
وَيُعَدُّ المؤتمَرُ الَّذِي عَقَدَهُ مركزُ «الملكِ عبدِ اللَّهِ» للحِوَارِ بينَ أَتبَاعِ الأديَانِ والثَّقَافَاتِ فِي شهرِ فبرايرَ منَ العَامِ الحَالِي نموذجًا للحِوَارِ؛ حيثُ أكَّدَ المِئَاتُ منَ القَادَةِ الدِّينيِّينَ: «مسلِمِينَ، ومسيحيِّينَ، ويهُودٍ» إجماعَهُم علَى قِيَمِ التَّماسُكِ الاجتماعيِّ والتَّعايُشِ السِّلمِيِّ، وقد ظلَّتِ الأُمَمُ المتَّحِدَةُ والمُفَوَّضِيَّةُ الأوروبيَّةُ تُنَظِّمُ حِوَارَاتٍ مُمَاثِلَةً وعلَى مستويَاتٍ وطنيَّةٍ.
بَيدَ أنَّ الحِوَارَ وحدَهُ لَا يكفِي، بَل يَنبَغِي أن يَتبَعَهُ عمَلٌ، وهُوَ مَا يَقُودُنِي إلَى نُقطَتِي الثَّالِثَةِ والأخِيرَةِ أَلَا وهِيَ: أهميَّةُ التَّعاوُنِ.

إِنَّ علَى كلٍّ مِنَّا مَسؤوليَّةَ مُعَارَضَةِ تلكَ الأفكَارِ والأعمَالِ الَّتِي تُغَذِّي مَشَاعِرَ العَدَاءِ والانقسَامِ، وفِي نهايَةِ المَطَافِ تُؤَدِّي إِلَى العُنفِ، وقد شَهدنَا فِي كثيرٍ منَ الدُّوَلِ زيادَةَ التَّعاوُنِ فيمَا بينَ أصحَابِ العقَائِدِ المختلفَةِ من مشروعَاتٍ تهدِفُ إِلَى رَأبِ الصَّدعِ بينَ الجماعَاتِ الدِّينيَّةِ والعِرقِيَّةِ والمُجتَمَعِيَّةِ، وبالرَّغمِ من وُجُودِ مِثلِ هذِهِ المشروعَاتِ، ثَمَّةَ حاجَة للمزِيدِ. فنحنُ بحاجَةٍ أيضًا إِلَى العَمَلِ معًا لِرَصدِ وإِدَانَةِ الأخبارِ الكاذبَةِ ونظَرِيَّاتِ المؤامَرَةِ والتَّفسيرَاتِ الظَّالِمَةِ للدِّينِ.

وفِي الخِتَامِ.. وقَبلَ محاولَةِ الإجابَةِ علَى السُّؤَالِ الرَّئِيسِ المطرُوحِ فِي ديبَاجَةِ هذَا الموضُوعِ: هَلِ الوضعُ الرَّاهِنُ مُوَاتٍ للإجابَةِ علَى السُّؤَالِ الرَّئِيسي المطرُوحِ فِي دِيبَاجَةِ هذهِ المناقشَةِ؟ هَلِ الوضعُ الحَالِي مُؤَدٍّ إِلَى ظهُورِ خطابٍ دينيٍّ أكثرَ انفتَاحًا وتحرُّرًا فِي أوروبَّا؟ رُبَّمَا أُجِيبَ: لَا، ليسَ بَعدُ، ولكن إِذَا قُمنَا بتعمِيقِ مَعرِفَتِنَا وَوَفَّرنَا فُرَصَ الحِوَارِ وزيادَةِ التَّعاوُنِ فيمَا بينَنَا، ستكُونُ أمامَنَا فرصَةٌ طيِّبَةٌ لِتَحقِيقِ ذلكَ فِي المَدَى القَرِيبِ.